مركزية الأنا وفعاليتها في بناء معالم الهوية الحضارية
آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي أنموذجا

The Centrality of the Ego and its Effectiveness in Building the Features of Cultural Identity in Sheikh Mohammed al-Bashir al-Ibrahimi' Heritage

د. عقيلة بعيرة

جامعة باتنة 1 (الجزائر)

akila.baira@univ-batna.dz

تاريخ الإرسال: 2022/08/18 **تاريخ القبول:** 2022/09/05

ملخص:

سعى الاحتلال الفرنسي إلى طمس معالم هوية الشعب الجزائري وسلب مقدراته المعنوية والمادية بوضع معالم بديلة تجسد ذاته وثقافته التغريبية، غير أن هذا الشعب أدرك ضرورة تدعيم المقاومة العسكرية بالمقاومة الفكرية والثقافية لخطورة الموقف، فكانت البداية بتأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي اتجهت إلى تكوين الفرد الجزائري باعتباره ركيزة وأساس كل فعل حضاري، ورغم التحديات الكبرى التي واجهتها من قبل الاستعمار، إلا أنها مضت في تحقيق أهدافها بفضل نشاط رجالها؛ مثل الشيخ محمد البشير الإبراهيمي بجهوده الفكرية والأدبية والسياسية.

يهدف البحث: إلى الكشف عن مساهمات هذه الجهود وأثرها في استرجاع الذات الجزائرية رغم إحكام الاحتلال الفرنسي لسيطرته على جميع المستويات.

الكلمات المفتاحية: الهوية؛ الكولونيالية؛ النهضة؛ الحضارية؛ محمد البشير الإبراهيمي.

Abstract:

The French occupation sought to obliterate the identity of the Algerian people and rob them of their moral and material capabilities by developing alternative landmarks that embody themselves and their Westernizing culture, but this people realized the need to strengthen the military resistance with intellectual and cultural resistance to the seriousness of the situation. It began with the establishment of the Association of Algerian Muslim Scholars, which tended to form the Algerian individual as the pillar and basis of every civilizational act, and despite the great challenges it faced by colonialism.It went on to achieve its goals thanks to the activity of its men, such as Sheikh Mohammed Al-bachir Al-ibrahimi his intellectual, literary and political efforts.

The research aims to reveal the contributions of these efforts and their impact on the restoration of the Algerian self despite the tightening of the French occupation of its control at all levels.

keywords: Identity; Colonialism; Renaissance; Civilization; Mohammed Al-bachir Al-ibrahimi.

مقدمة:

قيل في قيمة الرجال وأثرهم الراسخ في تاريخ الأمم وصنع أمجادها (يمضي الرجال ويبقى النهج والأثر) كذلك هو الأمر بالنسبة لواحد من عظماء هذه الأمة ممن سخروا أعمارهم وأفكارهم في خدمتها وتنوير عقول شبابها فاقترنت أسماؤهم بأوطانهم وصاروا عنوانا لمجدها كذلك هو الأمر بالنسبة للعلامة محمد البشير الإبراهيمي رائد النهضة الفكرية والثقافية في الجزائر فالحديث عن الرجل هو "حديث عن الجزائر أصالة وحضارة وصمودا ونهضة وتحررا، فقد جسد الجزائر في شخصيته نشأة وتكوينا وإشعاعا وقولا وكتابة وسلوكا".

أما بالنسبة لآثاره؛ فهي تشخيص لحقبة زمنية كاملة من تاريخ الجزائر بكل أبعادها الدينية والاجتماعية والسياسية والثقافية والحضارية، فقد كان يدرك أن وعي الأفراد، بإمكانه أن يساهم في توعية المجتمع وبالتالي المساهمة في تطوير أساليب المقاومة تماشيا مع الأوضاع المفروضة على الشعب الجزائري في ظل الاحتلال الفرنسي.

لذلك فقد حاولت الحركة الإصلاحية في الجزائر، وبقيادة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وكوكبة من المصلحين البارزين أمثال: (عبد الحميد بن باديس، الشيخ البشير الإبراهيمي، الطيب العقبي...الخ...)، إحداث نوع من التغيير الشامل في المجتمع في جميع مجالات الحياة، خاصة في الجوانب الفكرية والاجتماعية والثقافية، وهذا بالموازاة مع ماكان سائدا آنذاك من مظاهر التغريب العام الذي تعرضت له كل المجتمعات المستهدفة ومنها المجتمع الجزائري من طرف الأنظمة الكولونيالية الغربية، والتي سعت إلى طمس وتحريف معالم وقيم وهويات هذه الشعوب تمهيدا لسياسات التغريب والاستلاب الكلية فيما بعد.

وبإدراك رجال الإصلاح في الجزائر –ومنهم الشيخ البشير الإبراهيمي– بمخاطر هذه الأساليب المنتهجة على الأمة على المديين (القريب والبعيد) والممهدة لاحتلال الأوطان واستلابها وتغيير معالمها باحتلال ذوات الأفراد وغزوها فكريا ولغويا وعقديا للتمكن من تحقيق أهدافها بكل يسر في ظل تفوقها العسكري والمادي فقد سعى الاحتلال الفرنسي للحفاظ على مكاسبه المادية، ومحاولة تحصيل مكاسب أخرى معنوية وفكرية وثقافية لأنها الوسيلة الأكثر ضمانا وأريحية لتواجده وبقائه دون عناء.

لذلك فقد انتهج رجال الإصلاح في الجزائر نموذجا إصلاحيا فعالا لمجابهة ومواجهة هذه الحملات الكولونيالية الشرسة، وما كانت تقوم به من إغراءات وتحفيزات لاستقطاب الفئات المستضعفة في المجتمع وتوجيهها وفقا لتوجهاتها التغريبية خاصة فئة الشباب.

فما كان على رجال الإصلاح خاصة الشيخ البشير الإبراهيمي الخطيب الفصيح والإمام العادل العارف والمفكر الحاذق وزملائه في الإصلاح إلا السعي لتجنيد وتفعيل كلّ الطاقات الفكرية في القطر الجزائري لاستثمارها وتهيئتها فكريا وعقديا وسياسيا لإبطال هذا النموذج الحضاري الغربي (التغريبي)، بإنشاء نموذج حضاري إسلامي يقوم على أسس تقويمية فعالة كفيلة بالمساهمة في إحداث نهضة فكرية ثقافية في المجتمع.

وقد ركّز الإبراهيمي في عمله التوعوي على الإنسان باعتباره العنصر الأكثر فاعلية وأهمية في أي بناء حضاري، فعمل على توعيته وتحصينه فكريا وثقافيا وعقديا من كل استدراج تغريبي، قد يؤدي إلى ضياع ارتباطه بهويته وحضارته، وبالتالي تراجع وتلاشي قيمه ومبادئه وهويته وارتباطه بمجتمعه.

فكانت بذلك بوادر الحركة الإصلاحية قد بدأت فعليا في مسارها النهضوي الحضاري من خلال سعيها لتكوين الفرد الجزائري وإصلاحه وتقويم سلوكاته المكتسبة عن الاستعمار وتصويب توجهاته الفكرية والثقافية رغبة منها في تغيير الأدوار في ميدان الصراع مستقبلا.

ولنا في شخصية الشيخ محمد البشير الإبراهيمي نموذج المصلح المثقف والقدوة الفاعلة والقائد المقدام والعالم المفكر، بالإضافة إلى كل ما يميز شخصه من كفاءة فكرية وثقافية وأدبية، وهذا ما سيقف عليه القارئ المتفحص لآثاره المختلفة والمتنوعة والتي تطلعنا بكفاحه المتواصل في إبرازه وتأكيده لمدى فعالية الفرد ومركزيته وإيجابيته في تحقيق النهضة الحضارية.

وهذا ما نستخلصه من خلال اطلاعنا على هذه الآثار الثرية والتي تعدّ بحق منهج إصلاحي متكامل، والتي أبرز من خلالها الشيخ الإبراهيمي مجموعة من الآليات الثقافية والفكرية والدينية القادرة على تفعيل الذات الفردية وتقويمه، جاعلا منها المحور الأساس في كل عملية إصلاح فردية أو جماعية، لذلك فقد وسمت مداخلتي بـــ: مركزية الأنا و فاعليتها في بناء معالم الهوية الحضارية – آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي أنموذجا–

لقد مكنتني القراءات المتعددة لآثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي من استخلاص أربع محاور أساسية شكلت مسيرته النضالية في إبراز دور الفرد في بناء معالم هويته الحضارية، وقد رتبنا هذه المحاور وفقا لأهميتها وتدرجها في بناء ذات الفرد وهي كالآتي:

المحور الأول: والمتمثل فـي: اكتساب مقومات الذات الحضارية و المتمثلة في الأساس في كل من: الديـن واللغة.

والمحور الثاني: والمتمثل في: السعي لتحقيق الذات من خلال رفض الاستبداد (الاستيلاب) والتغريب والتطلع للحرية والمستقبل

والمحور الثالث: والمتمثل في: الاهتمام بالتعليم من خلال الاهتمام بالعناصر الآتية: الاهتمام بالمعلمين والمتعلمين. والاهتمام بالتعليم الديني، والسعي لتحصيل المعارف والعلوم العصرية.

والمحور الرابع: والمتمثل في: نشر الوعي السياسي تمهيدا لخوض المعركة التحريرية الكبرى من خلال؛ إنشاء الأحزاب السياسية والحركات الوطنية وتدويل القضية الجزائرية وإرسال البعثات العلمية.

أبرز الشيخ محمد البشير الإبراهيمي أهمية هذه المحاور وما تنطوي عليه من عناصر وقيم ومبادئ يمكن اعتبارها ركائز أساسية في كل نهضة فكرية وثقافية بديلة عن حالة التغريب العامة التي شهدها المجتمع العربي في الجزائر، وأول هذه العناصر التي حاول تفعيلها لتحقيق النهضة الحضارية، هي تقويم ذات الفرد وجعلها الحصن المنيع والخزان الأمين لهذه المقومات حيث قال: "من أراد أن يخدم هذه الأمة فليقرأها كما يقرأ الكتاب، وليدرسها كما تدرس الحقائق العلمية، فإذا استقام له العمل وآمن الخطأ فيه، وضمن النجاح والتمام له، فإن تصدى لأي عمل يمس الأمة من غير درس لاتجاهها ولا معرفة بدرجة استعدادها كان حضه الفشل"[1].

وهنا يبرز لنا الشيخ مدى أهمية التشخيص الفعلي لمشاكل الأمة وإدراك حقائقها للوقوف على مواطن الضعف فيها ومحاولة إصلاحها وترميمها للنهوض بها، فالمصلح الحقيقي هو من يكون على دراية تامة بكل الوقائع التي تخص مجتمعه ووطنه "وأنا رجل ممن هيأتهم الأقدار لخدمة هذه الأمة في نواح دقيقة شريفة لا نقبل فيها الزيف ولا تسامح فيها مع الباطل"[2].

المحور الأول: اكتساب مقومات الذات الحضارية:

إن المتأمل لأحوال الأمة والبشر لابد وأنه سيقف على مجموعة من الحقائق أولها؛ أن الاستعمار كان ولا يزال أصل كل داء وتخلّف نظرا لاقترانه وتضمنه لكل معان الاستبداد والاستلاب، وبذلك فأخطر آثاره تكون في نفوس الأفراد وعقولهم، فهو يعمل على استلاب أسس ومعالم الذات والهوية الحضارية للمجتمعات والأمم من قيم روحية وفكرية لذلك وجب على كل من رغب في تحقيق ذاته وهويته إدراك مثل هذه المخاطر الفكرية والروحية والتضحية في سبيل تقويم شباب الأمة وإعادة ربط الصلة بينهم وبين هذه القيم.

وكان الإبراهيمي من أبرز من سعى في ذلك، فقد حاز احترام الجزائريين وكل إنسان شريف يتوق إلى العزة والكرامة لأنّ المجد "لا يُنال إلا بنوع من البذل في سبيل الجماعة"[3].

1- الدين: من أهم مقومات الهوية الحضارية لأي أمة من الأمم، كما أنه من أهم العناصر الأساسية في توحيدها فـ "الأمة هي مجموعة أفراد يجمعها نسب أو وطن أو لغة أو دين كما أنّ البناء مجموع أنقاض، فحسبما تكون الأنقاض جنسا وجمالا وقوة يكون البناء، فإذا ترقت أو انحطت الأمة، ترقت هيئاتها الاجتماعية، حتى إن حالة الفرد الواحد من الأمة تؤثر في مجموع تلك الأمة"[4].

هنا تتجلى أهمية الدين ومركزيته في الحفاظ على انسجام أطراف المجتمع وتكامل علاقتهم ببعضهم البعض ووحدة مصيرهم "إذا كان الدين مبنيا على العقل يكون أفضل صارف للفكر على الوقوع في مصائد المخرفين، وأنفع وازع يضبط النفس من الشطط وأقوى مؤثر لتهذيب الأخلاق وأكثر معين على تحمل مشاق الحياة، وأعظم منشط على الأعمال المهمة الخطرة، وأجل مثبت على المبادئ الشريفة، وفي النتيجة يكون أصح مقياس يستدل به على الأحوال النفسية في الأمم والأفراد رقيا وانحطاطا"[5]. لذلك فقد حظيت الحركة الإصلاحية الدينية في الجزائر باهتمام كبير من قبل المصلحين خاصة الإبراهيمي حيث مثلت المرحلة الأساسية الأولى التي مثلت التأسي الفعلي للمشروع النهضوي العربي الإسلامي في الجزائر من خلال تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بقيادة ابن باديس والإبراهيمي وغيرهم سنة 1931م، بعد احتفال فرنسا بالذكرى المئوية لاحتلالها للجزائر واعتقادها بالقضاء الكلي على الشخصية الوطنية ومقوماتها الدينية واللغوية، فقد قال أحد الحكام الفرنسيين في هذا السياق: "إننا لن ننتصر على الجزائريين ما داموا يقرؤون القرآن ويتكلمون العربية فيجب أن ننزل القرآن من وجوههم وأن نقتلع العربية من ألسنتهم"[6].

فالإسلام هو "عماد مشروعه النهضوي، فقد كرس الإبراهيمي حياته لغرسه في نفوس الأطفال (عبر المدارس)، وتقويته في قلوب الشباب (عبر النوادي)، وإنعاش عقول الكهول به (عبر المساجد)، حتى تصبح الأمة متماسكة البناء متضامنة الأعضاء، وتستطيع هكذا الخروج من الانحطاط الضارب وإخراج المحتل الغاصب ... فالإسلام هو دين التحرير العام

والتحرير الذي جاء به الإسلام شامل لكل ما تقوم به الحياة وتصلح عليه المعاني والأشخاص، والدين الإسلامي لا يفهم التحرر بالمعنى الضيق وإنما يفهمه على انه إطلاق من كل تقييد لوضع منحرف، أو إنصاف لضعيف من قوي"[7]. إن كل هذه المعاني السامية والقيم النبيلة التي تضمنها الإسلام وغابت عن الشباب، كانت بحاجة إلى من يبرزها ويجعل قلوب وعقول الأفراد تتعلق بها خاصة بعد سياسة الطمس والتغريب والتحريف التي كان الاستعمار يمارسها لقطع كل صلة بين الشعب ومقوماته الدينية.

2– اللغة: كل لغة هي امتداد لحضارة وثقافة إنسانية معينة، وهذا ما يميز كل مجتمع عن الآخر ويمنحه خصوصياته التي تعدّ جزءا لا يتجزأ من هويته، والتي تعتبر صمام الأمان للحفاظ على كيان الأمة وتقوية لحمتها وتطوير ثقافتها وصيانة أنظمتها الاجتماعية.

لذلك فقد حاول المستعمر الفرنسي نخر كيان الأمة الجزائرية وجعلها جزءا من كيانه جغرافيا وثقافيا ولغويا، فحارب كلّ مقوماته من لغة ودين وتاريخ، قال المؤرخ الجزائري أبو القاسم سعد الله: "إنّه من الخطأ الفادح فصل الوطنية الجزائرية عن اللغة العربية... فاللغة ليست أصواتا وألفاظا فقط ولكنها قبل كل شيء طريقة تفكير فلا يمكن الفصل بين الوطنية والعربية في الجزائر"[8]، كما أنّ هناك علاقة تكاملية بين اللغة والذات أبرزها العلامة ابن خلدون في قوله: "اللّغات إنّما هي ترجمان عما في الضمائر من تلك المعاني، يؤدّيها بعض إلى بعض بالمشافهة في المناظرة والتّعليم، وممارسة البحث بالعلوم لتحصيل ملكتها بطول المران على ذلك"[9]. لذلك "بقدر ما يحافظ أهل لغة ما على خصائص منطوقهم ومكتوبهم الأصل، تترسخ قوتهم الذاتية، وتتعزز عوامل الانسجام، والتوازن في شخصيتهم وفي علاقاتهم بما يصونهم عن الاضمحلال والذوبان ويحفظهم من التبعية والتهميش والدونية"[10]، وهذا ما جعل الاستعمار الفرنسي يسعى جاهدا لتغييب هذا الثابت وقطع الصلة بينه وبين الشعب الجزائري رغبة منه في تحريف الألسن وتغريب الفكر من أجل القضاء على كيان الأمة وتغييب هويتها بالقضاء على ركنيها الأساسيين وهما اللغة والدين.

المحـور الثـاني: السعي لتحقيق الذات

إنّ الهوية الحضارية هي عملية داخلية تتعلق بشعور الفرد بذاته أو كينونته وتبرز معالمها من خلال علاقته بمختلف القضايا التي يعالجها في مختلف جوانب الحياة، فالإنسان كينونة جوهرها العقل والحرية والعمل والانتماء وكل ما من شأنه أن يمس هذه الأبعاد الأساسية لجوهر شخصيته يدفع الشخصية إلى حالة اغتراب واستلاب يقول الشيخ محمد البشير الإبراهيمي: "أي شباب الإسلام إنّ الأوطان تجمع الأبدان، وإن اللغات تجمع الألسن، وإنما الذي يجمع الأرواح ويؤلفها ويصل بين نكرات القلوب فيعرفها فهو الدين، فلا تلتمسوا الوحدة في الآفاق الضيقة، ولكن التمسوها في الدين، والتمسوها في القرآن، تجد الأفق أوسع والدار أجمع والعديد أكثر والقوي أوفر"[11]. لذلك فمن سبل تحقيق الذات الحفاظ على المقومات الشخصية للهوية العربية الإسلامية للفرد الجزائري من خلال تمسكه بعقيدته وذلك لأنّ "الذات ليست نقطة متفردة، وإنما هي بنية معقدة ومجال شاسع يستغرق العناصر جميعا... والعناية بالذات هي عناية بالنفس وبالفعاليات، فالذات حركة وفعل وانفتاح وليست انغلاقا، وهي مبدأ التحكم في حياة الفرد وهو داخل في خضم شبكة من علائق والسلطة إنها ما يرمي بالذات داخل الممارسة الاجتماعية"[12]، فلكل مجتمع مقوماته الروحية التي تميزه عن غيره من المجتمعات وتشكل خصوصياته الذاتية.

"فالجزائر تنتمي إلى الحضارة العربية الإسلامية، وإنّ في كل حضارة ثابتا ومتحولا وأن المحافظة على الثابت هو حفظ للشخصية الوطنية من الاستلاب"[13].

1- **رفض الاستبداد و التغريب:** الاستبداد حتمية منطقية ونتيجة من نتائج الكولونيالية الشرسة، تتولد عنها الكثير من المظاهر السلبية على الذات الفردية والمجتمع "فالاستبداد يضطر الناس إلى استباحة الكذب والتحيل والخداع والنفاق والتذلل إلى مراغمة الحس وإماتة النفس، ونبذ الجد، وترك العمل... إلى آخره، وينتج عن ذلك أن الاستبداد المشؤوم هو يتولى بطبعه تربية الناس على هذه الخصالة الملعونة"[14].

عانت الجزائر إبان الفترة الاستعمارية "الاغتراب هو شعور الفرد بالانفصال عن المجتمع وإحساسه بالغربة"[15] ويعرفه ولمان (Wolman) "بأنه تدمير وانهيار العلاقات الوثيقة وتمزيق

مشاعر الانتماء للجماعة الكبيرة، كما في تعميق الفجوة بين الجماعات الاجتماعية عن بعضها البعض"[16]. والاستلاب مرادف للاغتراب ونعني به انحلال تلك الروابط والوشائج الوثقى التي تربط الفرد بمحيطه أو جماعته وهو ينقسم إلى عدة أنواع: استلاب ثقافي، ديني سياسي...إلخ، وفي هذه الحالة قد يجد الإنسان ذاته بعيدا غريبا عن مجتمعه وقيمه وأهدافه السامية، وكذلك الابتعاد عن انشغالاته وهمومه ومشاكله ومنه عدم الإحساس بأي رابط أو قاسم مشترك بينه وبين أفراد مجتمعه لذلك فقد عان الفرد الجزائري من الاغتراب الذاتي الذي فرض عليه من قبل الاستعمار مما غيب قدرات وكفاءات الشباب الجزائري في مجتمعه ووطنه، "فالإنسان كينونة جوهرها العقل والحرية والعمل والانتماء، وكل ما من شأنه أن يمس هذه الأبعاد الأساسية لجوهر الشخصية، يدفع الشخصية إلى حالة اغتراب واستلاب"[17].

فالاغتراب دائما ما يشعر الإنسان بالقهر والتسلط والعبودية، لذلك فوسائله متعددة: كسلب الحريات والمبادئ والقيم، أما أنواعه فهي متعددة منها الاغتراب الروحي، والاجتماعي، والثقافي والفكري...إلخ.

2- التطلع للحرية والمستقبل: يقول عبدالرحمن الكواكبي: "إنّ أخوف ما يخافه المستبدون الغربيون من العلم هو أن يعرف الناس حقيقة أنّ الحرية أفضل من الحياة وأن يعرفوا النفس وعزها والشرف وعظمته والحقوق وكيف تحفظ، والظلم وكيف يرفع، والإنسانية وما هي وظائفها، والرحمة وما هي لذاتها"[18]، لذلك فقد سعى الاستعمار إلى استبداد الشعوب وتغييب كل ما من شأنه تنوير أفكارهم لأن ذلك يتنافى وأهدافهم الاستعمارية.

المحور الثالث: الاهتمام بالتعليم

قال البشير الإبراهيمي في أهمية العلم ودوره في تحرير الأوطان والعقول ومحاولة المستعمر لطمس معالمه وتجهيل الشعوب لتسهيل قيادتها "ألا إنّ في الاستعمار لفحة من جهنم، وإنّ في المستضعفين سمات من أهلها... وكما أنّ جهنم تتقى بالأعمال الصالحة وأساسها الإيمان فإنّ الاستعمار يتقى بالأعمال الصالحة وأساسه العلم، و إذا كان العدو الأكبر لجهنم هو العمل الصالح، فإنّ العدو الأكبر للاستعمار هو التعليم"[19]، لذلك فقد حرم الاستعمار الفرنسي التعليم العربي والإسلامي على الجزائريين لإدراكه لمدى خطورة وعي الشعب على

وجوده وأهدافه، لذلك فقد سعت الإدارة الاستعمارية وبكل إصرار على محور التعليم العربي في الجزائر والتضييق عليه وذلك من خلال الشروط التعجيزية والإجراءات التعقيدية التي فرضتها على المعلمين والمتعلمين والهيئات الراغبة في فتح مؤسسات تعليمية، وعلى العكس من ذلك راحت تشجع التعليم الفرنسي وتحفز فئات محدودة من الجزائريين للالتحاق به وهذا ما يبرز مقاصدها ونواياها العدائية ومصادرتها لحق الجزائريين في التعليم عموما والتعليم الديني خصوصا.

وقد جعل الاستعمار من محاربته لهذين العنصريين "وسيلة من وسائله في قتل معنويات الشعوب وعنوان على مخازيه التي منها أن يعتبر الإسلام غريبا وهو في داره"[20]، فقد ضيقت فرنسا على أعضاء جمعية العلماء المسلمين ممارسة مهامهم التعليمية وأنشطتهم التوعوية وهذا لإدراكها لمدى خطورة ذلك على وجودها وأهدافها، فحاربت روحانية الإسلام وفضائله في النفوس.

وهذا أمر منطقي بالنسبة للعلاقة بين الكولونيالية المستبدة والعلم والدين وهما وهج النفوس وتبصرة الأفئدة والعقول، لذلك كان "الاستبداد والعلم ضدان، مغالبان، فكل إدارة مستبدة تسعى جهدها في إطفاء نور العلم وحصر الرعية في حالك الجهل والعلماء والحكماء الذين ينبتون أحيانا في مضايق صخور الاستبداد يسعون جهدهم في تنوير أفكار الناس، والغالب أنّ رجال الاستبداد يطاردون رجال العلم و ينكدون بهم"[21].

"إن هذه الأمة رضيت لأبنائها سوء التغذية، ولكنها لا ترضى لهم أبدا سوء التربية"

1- **الاهتمام بالمعلمين:** لقد حاولت جمعية العلماء المسلمين منذ تأسيسها، استقطاب كل الكفاءات العلمية والدينية في القطر الجزائري لتكون حاملة مشعل النهضة، ولتكوينهم لتولي مهمة تلقين المعارف والعلوم للنشء عبر ربوع الوطن، وكان الشيخ البشير الإبراهيمي حريصا على استقطاب هذه الفئة وحثها على التميز والكفاءة نظرا لقدسية الرسالة والمهمة الموكلة لهم وتحفيزهم للقيام بها على أكمل وجه مخاطبا إياهم بقوله: "احرصوا على أن يكون كل واحد منكم بطل ميدان"[22].

"إنّ التربية هي ضالة الأمم وفقدها هي المصيبة العظيمة، حيث الإنسان يكون إنسانا بتربيته، وكما يكون الآباء يكون الأبناء، وكما تكون الأفراد تكون الأمة، والتربية المطلوبة هي التربية المرتبة على إعداد العقل للتمييز والتعويد، ثم على حسن التفهم والإقناع ثم على تقوية الهمة والعزيمة، ثم على التمرين، ثم على حسن القدوة والمثال، ثم على المواظبة الإتقان ثم على التوسط والاعتدال"[23].

2- **الاهتمام بالتعليم الديني:** حارب الاستعمار الفرنسي التعليم العربي الديني في الجزائر وحاول تعويضه بالتعليم الفرنسي، وهذا ما نصت عليه التشريعات الحربية في الجزائر، حيث فرضت "على المدارس العربية من تعمير خمس عشرة ساعة في الأسبوع بتعليم اللغة الفرنسية"[24]. وبهذا يكون الاستعمار قد حاول التضييق على التعليم العربي الديني بتضييق الوقت على الحصص المخصصة له في البرامج التعليمية، رغم المساعي الكثيرة التي رفعتها جمعية العلماء المسلمين إلى السلطات المحلية، من أجل استعادة حقها في تعليم أبنائها تعليما يندرج ضمن مناهجها ومقوماتها الحضارية، وهو ما يندرج في ظل الصراع الفكري الذي كان سائدا بين الاستعمار والشعب الجزائري "أما المتعمقون في التفكير فيرون أن هذه المعركة غير عادية وإنما شأنها ما ذكرناه وهو أنه صراع بين الإسلام والمسيحية، فالاستعمار كله مسيحي، يخفي ذلك ما يخفيه، فتفضحه الشواهد والشهود... لذلك كان إلحاحنا في المطالبة بحرية التعليم العربي، وبحرية المساجد، وباستقلال القضاء الإسلامي، لأنّ هذه الثلاثة هي بعض حقوقنا في الحياة، ولا يكتمل الجانب الديني منها إلا بهذه الثلاثة مجتمعة متلازمة"[25].

3- **السعي لتحصيل المعارف و العلوم العصرية:** تعدّ العلوم العصرية حسب محمد البشير الإبراهيمي من أهم شروط ودعائم المشروع الحضاري، لذلك فقد نوّه إلى ضرورة الأخذ بها ومسايرتها للحاق بركب الدول والمجتمعات المتطورة فقال: "يجب أن ننهل منها بدون عقدة لأن الحضارة هي في الحقيقة تراث إنساني تسلمه أمة إلى أمة، وتأخذه أمة عن أمة، فتزيد فيه أو تنقص منه بحسب ما يتهيأُ لها من وسائل، وما يؤثر فيها من عوامل"[26].

وقد خصّ بهذه المهمة كلّ من المعلمين والمتعلمين والمثقفين، باعتبارهم الفئة الأكثر مسؤولية عن تجسيد هذا المشروع النهضوي: "لأنهم هم حفظة التوازن في الأمم وهم القومة على الحدود أن تهزم، وعلى الحرمات أن تنتهك، وعلى الأخلاق أن تزيغ، وهم الميزان لمعرفة كل إنسان حَدَّ نفسه... ويراهم الطاغي المتجبر عيونا حارسة، فيتراجع عن العبث

والاستبداد... وعلى المثقفين الامتزاج بالأمة والاختلاط بطبقاتها والتحبب إليها ومشاركتها في شؤونها الاجتماعية، والدخول في مجتمعاتها ومعابدها ومشاركتها في عيادتها وفي الصالح من عوائدها...، وثقة الأمة بالمثقفين هي رأس المال"[27].

المحور الرابع: نشر الوعي السياسي تمهيدا لخوض المعركة التحريرية الكبرى

كلّ ما كتبه الشيخ البشير الإبراهيمي في آثاره يندرج ضمن الأدب التوعوي النهضوي الهادف والذي يعكس حرص الرجل على إصلاح الفرد ونهضة الأمة، فالجزء الثالث من آثاره "عيون البصائر" هو مشروع نهضة أمة انطلاقا من قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ ما بِقوْمٍ حتّى يُغَيِّرُوا مَا بأَنْفُسِهم﴾(الرعد:11)، فقد أدرك الإبراهيمي أنّ النهضة الفعلية تبدأ من الفرد فبدأ مشروعه بإنشاء مدرسة ومسجد وحافظ على استقلاله.

حاولت جمعية العلماء المسلمين التمهيد لبث ونشر وعي سياسي في أوساط الشعب الجزائري وتحفيزه على الوعي الجماعي بالمساهمة في الحركات السياسية المنتشرة آنذاك؛ كحركة نجم شمال إفريقيا، وحزب الشعب الجزائري سنة 1946 والكشافة الإسلامية الجزائرية ... إلخ وقد كانت الغاية من كلّ هذا هي محاولة تكوين الأفراد وتوعيتهم وفتح أفاق النضال السياسي الجماعي الممنهج أمامهم تمهيدا للمراحل النضالية القادمة، وكان ذلك بفضل التربية والتعليم وبناء المساجد والنوادي وإحياء المقومات الذاتية، ونشر المعرفة والقيام بثورة ثقافية حقيقية، فقد شنّت الجمعية "حربا بدون هوادة على الجهل والتحجر والبدع والخرافات والخمول والاستكانة، لقد أدخلت تلك الثورة الثقافية على المجتمع الجزائري تحولات في مفاهيمه، إذ أيقظت فيه روح الأخوة والتضامن وبعثت فيه الأمل الذي هو مفتاح الوصول إلى الغاية المنشودة"[28].

ونظرا لمكانته العلمية وحنكته السياسية فقد عين الشيخ محمد البشير الإبراهيمي بين سنتي 1952م–1962م كممثل الجمعية لدى الحكومات العربية للتعريف بالقضية الوطنية لدى الأوساط السياسية لهذه البلدان، والتمهيد لإرسال بعثات علمية إلى جامعات ومعاهد هذه الدول، وقد اتخذ من القاهرة مقرا له.

وبعد اندلا ع الثورة التحريرية الكبرى بأسبوعين، وجّه "نداء إلى الشعب الجزائري يدعوه فيه إلى الالتفات حول الثورة المسلحة وخوض غمار الجهاد المقدس"[29].

خاتمة

توصلنا في نهاية هذا البحث إلى مجموعة من النتائج أهمها:

إن الشيخ محمد البشير الإبراهيمي صاحب مشروع نهضوي حضاري يقوم على مجموعة من الأسس هي:

- تهيئة الذات الفردية دينيا وفكريا.
- تهيئة المجتمع من خلال توعيته واستعداده ونضاله للقيام بهذه النهضة الحضارية.
- لكل نهضة حضارية شروط لابدّ من توفرها والعمل الجاد على تحصيلها وفي مقدمتها الإنسان والزمان.
- من معايير رفع الاستبداد في الأمم التوق للحرية والتمكن من العلم.
- يقاوم الاستعمار باللين والوعي والتدرج وتهيئة النفوس والعقول القادرة على رفع التحدي.
- العمل من أجل المحافظة على ثوابت الأمة من دين ولغة وتاريخ وقيم حضارية.
- الاهتمام بالتعليم من خلال الاهتمام بالمعلمين والمتعلمين على حدّ سواء، والسعي لتأسيس مدرسة جزائرية أصيلة حريصة على حفظ ثوابت الأمة.
- محاربة المشروع التغريبي الكولونيالي الذي سعى إلى تخريب العقول وتغريب النفوس.
- الحفاظ على انتماء الجزائر العربي الإسلامي من خلال غرس قيمها في نفوس شبابها.
- تعدّ آثار الشيخ البشير الإبراهيمي سجلا ثريا فكريا وحضاريا وتاريخيا يشخص لنا حقبة زمنية مهمة من تاريخ الجزائر الحضاري.

الهوامش والإحالات

(1)– محمد البشير الإبراهيمي. عيون البصائر، الجزائر: دار الأمة للطباعة، (د ط، 2007م)، ص224.

(2)– نفسه، ص224.

(3)– عبد الرحمن الكواكبي. طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، الجزائر: جيغا بوكس، (ط1، 2014م) ص43.

(4)– نفسه، ص103.

(5)– نفسه، ص108.

(6)– محمد البشير الإبراهيمي. الآثار الكاملة، ج1، بيروت: دار الغرب الإسلامي،(ط1،1997م)، ص7

(7)– نفسه، ج4، ص357–358.

(8)– أبو القاسم سعد الله. منطلقات فكرية، بيروت: الدار العربية للكتاب، (د ط، دت)، ص33.

(9)– عبد الرحمن ابن خلدون. المقدمة، الجزائر: دار الهدى، (د ط، 2009م)، ص622.

(10)– فتحي بوعجيلة. "الأداء اللغوي في الفضائيات العربية من أجل التأصيل والتوصيل"، مجلة الآداب العربية، مجلة فصلية تصدر عن اتحاد إذاعات الدول العربية، عدد:4، 2013م، ص53.

(11)– آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي الجزء 1، مصدر سابق، ص15.

(12)– عبدالسلام بن عبدالعالي. ميثولوجيا الواقع، الدار البيضاء: دار توبقال، (ط1،1999)، ص42-43

(13)– آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي الجزء 1، مصدر سابق، ص15.

(14)– عبد الرحمن الكواكبي. طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، مصدر سابق، ص98.

(15)– فَيّ همام حبيب، الشباب العربي في المهجر، دار جرير، عمان – الأردن، 2008. ص 9.

(16)– أسماء ربحي العربي وعلاء نصير الجواد الرواشدة: الاغتراب الاجتماعي لدى الشباب الأردني في عصر العولمة – المجلة الأردنية للعلوم الاجتماعية، مجلد 9، العدد 2، 2016. ص 223–224 .

(17)– علي أسعد وطفة: الاغتراب خارج حدود الإيديولوجيا، مجلة دراسات، إتحاد كتاب وأدباء الإمارات، العددان (22–23) سبتمبر– ديسمبر. ص 126.

(18)– عبد الرحمان الكواكبي، مصدر سابق، ص 42.

(19)– عيون البصائر، مصدر سابق، 237.

(20)– نفسه، ص241.

(21)– عبد الرحمن الكواكبي. مصدر سابق، ص 41 .

(22)– عيون البصائر، مصدر سابق، ص288.

(23)– عبد الرحمن الكواكبي مصدر سابق، ص103.

(24)– عيون البصائر، مصدر سابق، ص267.

(25)– عيون البصائر، مصدر سابق، ص283.

(26)– آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي الجزء1، مصدر سابق، ص 374.

(27)– ينظر:– آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي الجزء 2، مصدر سابق، ص126–129.

(28)– آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي الجزء1، مصدر سابق، ص 8.

(29)– نفسه، ص 16.